Racial discrimination campaigns during the reign of Muhammad ibn Tumart and their role in consolidating the Almohad movement in Moroccan society 518-519 AH / 1124-1125 AD

Dr. Zainab Wardah *

(Received 18 / 11 / 2023. Accepted 22 / 1 / 2024)

□ ABSTRACT □

Islamic history witnessed a process of repetition of the phenomenon of the advent of a person who calls for a return to the correct religion, unification of the nation around it, resorting to Sharia law, raising the slogan of enjoining good and forbidding evil, and jihad for the sake of God. And he began calling people to return Islam to its first state, and despite the essence of Ibn Tumart's religious call, it soon turned into a political call, and succeeded in establishing a major state in the Arab and Islamic Maghreb, and extended until it included Andalusia.

The emergence of the Almohad movement, and its success in establishing a major state, led to the emergence of movements opposing the existing political authority, so Ibn Tumart and his successor rulers sought to adopt a new approach, based on the process of distinction and differentiation, or what was called campaigns of recognition, and this matter became a doctrinal and political phenomenon, It ended with the consolidation of Almohad rule, after relying on political extremism based on exclusion, and therefore this process does not distinguish the spiritual side of religion from the ideological or political side of it.

Keywords: Muhammad ibn Tumart, the Mahdi, Aloncharisi, the process of discrimination, recognition campaigns.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

*Assistant Professor- Department of History- Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Latakia– Syria - zainab.wardah@tishreen.edu.sy

حملات التمييز العرقي في عهد محمد بن تومرت ودورها في ترسيخ حركة الموحدين في المجتمع المغربي (518-519هـ/1124-1125م)

د. زينب عقل وردة*

(تاريخ الإيداع 18 / 11 / 2023. قبل للنشر في 22 / 1 / 2024)

□ ملخّص □

شهد التاريخ الإسلامي عملية تكرار لظاهرة مجيء شخص يدعو إلى العودة إلى الدين الصحيح، وتوحيد الأمة حوله، والاحتكام إلى الشريعة، ورفع شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ومن أمثلة ذلك دعوة محمد بن تومرت الذي تسمى بالمهدي، وبدأ يدعو الناس إلى العودة بالإسلام إلى حالته الأولى، وعلى الرغم من جوهر دعوة ابن تومرت الديني، إلا أنها ما لبثت أن تحولت إلى دعوة سياسية، ونجحت بتأسيس دولة كبرى في المغرب العربي والإسلامي، وامتدت حتى شملت بلاد الأندلس.

أدى ظهور الحركة الموحدية، ونجاحها في تأسيس دولة كبيرة، إلى ظهور حركات معارضة للسلطة السياسية القائمة، فسعى ابن تومرت ومن خَلَفَهُ من الحكام إلى انتهاج منهج جديد، قائم على عملية التمييز والمفاضلة، أو ما سمي بحملات الاعتراف، وأصبح هذا الأمر ظاهرة مذهبية وسياسية، انتهت إلى ترسيخ الحكم الموحدي، بعد الاعتماد على التطرف السياسي القائم على الإقصاء، وبالتالي فإن هذه العملية لا تميز الجانب الروحي للدين من الجانب الإيديولوجي أو السياسي له.

الكلمات المفتاحية: محمد بن تومرت، المهدي، الونشريسي، عملية التمييز، حملات الاعتراف.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **مدرس – قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية . zainab.wardah@tishreen.edu.sy**

مقدمة:

ظهرت الحركة الموحدية في ظل الصراع السياسي والعقائدي القائم في المغرب العربي، والتي تميزت بالتشدد في تطبيق الشعائر الدينية، والعودة بالإسلام إلى أمره الأول، وقد نجحت تلك الحركة من تشييد دولة واسعة النطاق، شملت بلاد المغرب بأقسامها الثلاثة (الأقصى والأوسط والأدنى) وكامل بلاد الأندلس، وقد سعت السلطة الجديدة إلى توطيد الحكم، من خلال القيام بعمليات تطهير واسعة النطاق، شملت جميع القبائل التابعة للدولة الموحدية، بهدف إعادة مفهوم الدولة الإسلامية إلى الأصل الأول، وإعادة شخصية المهدي إلى الوجود، من خلال شخصية ابن تومرت، ولإظهار أهمية الدين في تثبيت شرعية السلطة الحاكمة، وإراقة الدماء باسم الدين.

إشكالية البحث:

بدأ محمد بن تومرت بنشر دعوته بين القبائل، وعندما كثر اتباعه، سعى جاهداً لتنظيم حركته تنظيماً سياسياً وعسكرياً، وهكذا استطاع إنشاء أجهزة تتماشى مع احتياجات دولته الناشئة، وبقي أمراً أساسياً وجب على ابن تومرت تنفيذه، وهو استمرار تأييد القبائل لسياسته الخاصة، فقام بعمليات تمييز واسعة، هدفت إلى التخلص من كل شخص أو قبيلة يشك في ولائها له، وبدورهم اتبع خلفائه سياسته تلك، فقام عبد المؤمن بن علي بحملة تطهير واسعة بين القبائل، بعد نجاحه من التخلص من الثورات والحركات المعارضة له، فما هي حملات التطهير التي جرت خلال الحكم الموحدي، وما هو تأثيرها على الحكم الموحدي.

أهمية البحث وأهدافه

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في معرفة مدى تأثير حملات التطهير العرقي أو حملات الاعتراف، في تثبيت وجود حركة الموحدين ضمن المجتمع المغربي، وتحقيق الوحدة الاجتماعية بين القبائل التابعة للسلطة الموحدية، وتوجيه اهتمام الدولة الموحدية في سبيل تحقيق غاياتها الاجتماعية والدينية، وتأمين استقرارها السياسي، من خلال القيام بمحاكمات جماعية للقبائل الموالية لهم، وتوجيه أصابع الاتهام بعدم الولاء للدولة إلى الكثير من أبناء القبائل، فساهمت تلك المجازر المرتكبة من تثبيت حكم الموحدين، وتحويل الدعوة الدينية التي بثها ابن تومرت بين القبائل، إلى دولة راسخة الجذور، ذات نظام ديني متشدد.

منهج البحث:

تم الاعتماد على عدة مناهج علمية متبعة في الدراسات التاريخية، كالمنهج الوصفي: حيث اعتمد البحث عليه عند الدراسة الوصفية للمادة التاريخية التي تتناول أحداث كل فترة، وكذلك عند ذكر الأماكن الجغرافية المتنوعة (كالمدن والبلدان)، كما اعتمد على المنهج التحليلي: وذلك عند صياغة المعلومات، ووضع التحليل المناسب لها، أو تحليل آراء المؤرخين القدماء والمحدثين حول حادثة معينة في بعض الأحيان، أو تحليل سبب حدوث بعض الأحداث في أحيان

أخرى. وقد تم الاستعانة بعدد من المصادر التي عاصرت الفترة المدروسة، والمراجع التي ساهمت في إغناء البحث بالمعلومات المهمة.

ثانياً: ظهور حركة الموحدين ومبادئها:

1- البدايات الأولى لظهور حركة الموحدين: يعد محمد بن تومرت(473-524هـ/1080-1130م)[1]، المؤسس الفعلي للحركة الموحدية، نشأ في بيت متدين، وقد عُرِفَ عنه حبه للعلم، فواظب على الدراسة والصلاة، وتلقى علومه في بلدته، ثم توجه إلى مراكش عاصمة الدولة المرابطية[2]، ومنها انطلق في رحلته العلمية نحو المشرق، فسافر إلى قرطبة وتلقى علومه من علمائها، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وبعدها اتجه نحو مكة لتأدية مناسك الحج، وخرج منها إلى بغداد والعراق وبلاد الشام، وخلال رحلته اطلع على أحوال المشرق العربي الإسلامي، وبعد عودته إلى بلاد المغرب في عام (510هـ/ 1116م)، ورأى ما تعانيه بلاد المغرب من تدهور وتراجع، فبدأ بممارسة دعوته القاضية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، كما أعلن العداء للمرابطين، وادعى بأنهم فاسدين، وأشار إليهم بالبدعة، وحث الناس على الخروج عليهم، وعندما أحس بالخطر منهم، فرّ من مراكش[4]، وتوجه إلى بلاد السوس[5]، حيث استقر في

---

[1]- اختلف المؤرخون في تسميته، فقال البعض: أنه محمد بن عبد الله (المعروف ب تومرت) بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رابح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، بينما قال أخرون أنه لا ينحدر إلى آل البيت بل هو محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون، وينتسب إلى قبيلة هرغة، أحد بطون قبيلة مصمودة البربرية الكبيرة، انظر: الزركشي، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م، ص3. والنجار، عبد المجيد: المهدي بن تومرت (حياته آراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب)، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، ط1، 1983م، ص23-33. وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، د.ط، 2000م، ج6، ص301.

[2]- المرابطين: قبائل بربرية تنتسب إلى صنهاجة، أسسها عبد الله بن ياسين الجزولي، وفق أسس دينية اصلاحية، وقد أطلق ابن ياسين تسمية المرابطين على اتباعه، لما علمه فيهم من نصرة للإسلام، وشدة بأسهم في الجهاد، أما تسمية الملثمون فاسم اختص به قسم كبير من قبائل صنهاجة الصحراء. انظر: حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ج1، ص154.

[3]- المراكشي، عبد الواحد (647هـ/1250م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949م، ص178-179. وفراحيتة، صابرة: القبائل الأمازيغية من وفاة الكاهنة حتى نهاية الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، جامعة محمد بو ضياف، الجزائر، 2016، ص12.

[4]- مراكش: بناها الخليفة يوسف بن تاشفين سنة465هـ/1072م، وقد عظم شأن هذه المدينة في عهدي المرابطين والموحدين، اشتهرت بتجارتها الواسعة، وزراعتها المتنوعة، وصناعتها المتطورة، فتنافس الناس إلى السكن فيها. انظر: الحميري، محمد عبد المنعم (900هـ/1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص540- 541.

[5]- بلاد السوس: بلاد واسعة تقع أقصى جنوب المغرب، ويمر بها نهر عظيم يصب في البحر المحيط (المحيط الأطلسي)، وعلى هذا النهر مدينة عظيمة تسمى بتارودانت، وهي أكثر بلدان الدنيا قصب سكر، أما قاعدة بلاد السوس فهي مدينة إيجلي، وهي مدينة كبيرة وقديمة، في سهل من الأرض على هذا النهر. انظر: الحميري: الروض المعطار، المصدر السابق، ص330.

تينمل[6]، واتخذ منها مركزاً له ولأنصاره[7]. فحظي بمحبة الأهالي وثقتهم، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين والتي تعني المقرين بوحدانية الله، لأن مذهب التوحيد كان أساس عقيدته، ودعوته لرفض البدع، وشبهات التشبيه، والإشراك بالله[8]. بعد استقرار الوضع لابن تومرت، بدأت دعوته تأخذ منحاً عسكرياً، فبدأ عملياته العسكرية فاستولى على بلاد رجراجة، وأخذ يدعو إلى معرفة الله تعالى، وتعليم شرائع الإسلام، وسار في بلاد المصامدة، وفتح بلداناً كثيرة، ودخل في طاعته الكثير من السكان، ثم غزا منطقة أغمات وبلاد هزرجة، فضلاً عن استيلائه على قبائل درن وفتح حصونها[9].

2- تنظيم حركة الموحدين: بعد استقرار الأمر لابن تومرت في بلاد السوس، وكثرة الوفود القادمة لبيعته، والتفافهم حوله، أدرك آنذاك أن عليه السيطرة عليهم، وتوجيههم نحو هدفه، لذا يتوجب عليه تنظيمهم تنظيماً محكماً، فرتبهم إلى أصناف، ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في السفر ولا في الحضر[10]، كما شكل منهم أربعة عشر طبقة، وأعطى هؤلاء سلطات واسعة، كون معظمهم من رؤساء القبائل والعشائر، ويستطيع بوساطتهم السيطرة على قبائلهم، وجعلهم يعملون عيوناً بعضهم على بعض، ويوافونه بكل كبيرة وصغيرة مما جعل له رهبة في النفوس، وأدخل المصامدة في طاعته، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة القوية والسليمة[11]. ومن أهم هذه الطبقات:

أ- **أهل العشرة:** وهم مجلس يتكون من عشرة أشخاص[12]، الذين استجابوا لابن تومرت وهو لا يزال في طريقه إلى المغرب ولم يعلن بعد إمامته ثم إن هؤلاء العشرة كانوا أول من بايعه وأمنوا بأنه المهدي المنتظر[13]، فكان سبقهم في

---

[6]- تينمل: تقسم الكلمة إلى كلمتين تين وملل وتعني باللغة البربرية ذات الحواجز، وذلك دلالة على وعورة مسالكها، الأمر الذي يجعل الوصول إليها من صعباً، ويسكنها مجموعة من القبائل المصمودية، وقد شملت أحد عشر بطناً، ظهرت أهميتها بعد انضمامها إلى الحركة الموحدية، وإيوائها لابن تومرت الذي بنى فيها داره ومسجده، وحصنها حتى غدت أمنع الحصون. انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت:626هـ/1228م): معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ج2، ص69. وعبد الملك، ابن صاحب الصلاة (ت: 594هـ/1198م): المن بالإمامة في تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م، ص149.

[7]- الفضل، محمد أحمد: شرق الأندلس في العصر الإسلامي، دار المعرفة، القاهرة، د. ط، 1996م، ص53.

[8]- الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، د.ط، د.ت، ج6، ص726.

[9]- العزاوي، عبد الرحمن حسين: المغرب العربي في العصر الإسلامي، دار الخليج للطباعة والنشر، عمان، ط1، 2011م، ص116.

[10]- ابن القطان، علي بن محمد بن عبد الملك (ت: 628هـ/1230م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، 1990م، ص83.

[11]- مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ط5، 2000م. ص177.

[12]- وهم: عبد المؤمن بن علي، والبشير الونشريسي، أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني، وعمر بن علي بن أصناك، وسليمان بن مخلوف، وإسماعيل بن يسلا، وعبد الواحد الحضري، موسى بن تمارى الكدميوي، أبو بكر بن يجبت، أبو عثمن بن يخلف. انظر: ابن أبي زرع، علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس (في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، د.ط، 1971م، ص190.

[13]- الغناي، مراجع عقيلة: قيام دولة الموحدين، منشورات قار يونس، بنغازي، ط2، 2008م، ص204.

الإيمان به مسوغاً لكونهم أقرب المقربون، وكان هؤلاء أول من اعترفوا بابن تومرت مهدياً[14]، أو ربما كانوا يمثلون القيادة الجماعية للحركة الموحدية.

ب- أهل الخمسين: وهي طبقة مكونة من خمسين رجلاً يمثلون رؤساء مختلف القبائل[15]، وكان تقسيمهم على الشكل الآتي: من قبيلة تينملل أربعة عشر، ومن قبيلة هرغة ستة رجال، وأما من صنهاجة أربعة، ومن قبيلة هنتاتة وهسكورة ثلاثة، وأما من جدميوة وجنفيسة اثنان[16]، وهم يلون أهل العشرة في السلطة والأهمية[17].

ج- طبقة السبعين: وهم في الطبقة الثالثة ويتكون من سبعين رجلاً وتأتي أهميتها في المرحلة الثالثة بعد العشرة والخمسين[18].

د- الطلبة: هو الجهاز العلمي والثقافي في تنظيمات الموحدين، كانت مهمتها الرئيسية ترتكز حول ترسيخ الإيديولوجية الموحدية، وتعليم مبادئ الدعوة، والعمل على نشر هذه المبادئ في أوساط المجتمع المغربي عامةً والموحدي خاصةً، والحفاظ عليها[19]، فضلاً عن الدعاية لأعمال الدولة والتركيز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[20]. أسسها ابن تومرت، وشملت أصحابه الذين اجتمعوا حوله من مختلف القبائل في بداية دعوته، وأخذ يلقي عليهم الدروس[21]. وقد كان لهذه الطبقة ميزات عدة، منها: عدم حمل السلاح وعدم مشاركتهم في الحروب[22]، ومن هنا فقد حصلت هذه الفئة على مكانة مرموقة وعالية في المجتمع الموحدي، لدورهم العلمي والفكري في المجتمع، فضلاً عن نشرهم التعاليم الدينية، لذلك وجدوا حُسن المعاملة من قبل ولاة الأمر والعامة على حد سواء.

3- مبادئ ابن تومرت الدينية:

أ- **عصمة الإمام:** تعد هذه القضية محورية في الفكر التومرتي، فالعصمة تعني أنه معصوم من الخطأ لأنه ملهم ومهدي من ربه، وعلى الرعية السمع والطاعة، ويقول ابن تومرت حول هذه القضية: ".. وأن الباطل لا يرفعه

---

[14]- لوتورنو، روجي: حركة الموحدين في المغربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تر: أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، د.ط، 1982م، ص40.

[15]- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، 2012م، ج8 (من سنة 432هـ إلى سنة 520هـ)، ص659.

[16]- ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص84. والنجار: المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص116.

[17]- المراكشي، عبد الواحد (647هـ/1250م): وثائق المرابطين والموحدين، تح: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1، 1997م، ص76.

[18]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص659.

[19]- حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م، ص331.

[20]- دندش، عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية عصر المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني (510-546هـ/1116-1151م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ص137.

[21]- شبانة، محمد كمال: الدويلات الإسلامية في المغرب، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2008م، ص63.

[22]- البيذق، أبو بكر الصنهاجي: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، د.ط، 1971م، ص59.

إلا المهدي، وأن الحق لا يقون به إلا المهدي، وأن المهدي معلوم من العرب والعجم والبدو والحضر، وان العلم به ثابت في كل مكان، وفي كل ديوان، وأن ما علم بضرورة الاستفاضة قبل ظهوره يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره، وأن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه كافر، وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق، لا يجوز عليه الخطأ فيه، وأنه لا يكابر ولا يضاد ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع، وأنه فرد في زمانه، صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور، وأمره قائم إلى أن تقوم الساعة"[23]. كما دعا ابن تومرت إلى عصمة الإمام، فقال إن الإمام: "لا يكون إلا معصوماً من الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل، ولا يكون إلا معصوماً من الضلال، لأن الضلال لا يهدم الضّلال"[24]، لقد تمكن ابن تومرت من زرع فكرة العصمة عند اتباعه، حتى أصبح يلقب بالمعصوم، وأصبح هؤلاء يطلقونه عليه دون الحاجة لذكر اسمه بسبب اشتهاره به[25]. ومن هنا فقد كانت العصمة أحد المبادئ التي نادى بها ابن تومرت، وتلقت قبولاً واسعاً عن اتباعه وأنصاره.

ب- المهدية: اختلف المؤرخون حول من لقب ابن تومرت بالمهدي، فالرأي الأول: يرى أن ابن تومرت كثيراً ما كان يتحدث في خطاباته ورسائله عن المهدي المنتظر، ويجمعها ويشوق الناس إليه، وبقي كذلك حتى قام في عام 515هـ/1121م بتلقيب نفسه بالمهدي الذي بشرت به الأحاديث النبوية، وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[26]، وبينما رأي أخر يرى أن أصحابه من أهل العشرة هم من لقبوه بالمهدي، وذلك إثر خطبة له ألقاها في شهر رمضان، جاء فيها: "الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاؤه، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يبعثه الله إلى نسخ الباطل بالحق، وإزالة الجور بالعدل، مكانه المغرب الأقصى، وزمانه آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل"[27]، فلما فرغ منها أتاه عبد المؤمن وبقية أصحابه من أهل العشرة وقالوا له إن هذه الصفة لا تكون إلا فيك، فبايعوه على ذلك[28]. وعندما اكتملت بيعته لقب بالمهدي.

ج- التكفير: يعد من الثوابت التي اعتمد عليها ابن تومرت من أجل بلوغ غاياته السياسية، فسعى لنشر هذا المبدأ بين السكان المصامدة، التي وجد فيها موروثاً فكرياً خصباً تجاه مسألة التكفير، فلم يتطلب منه الأمر مجهوداً كبيراً لنشر هذا المبدأ بين الناس، فابن تومرت عندما انتهج سياسته الجديدة القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق فقد اتبع مع أنصاره مسألة الترغيب والترهيب حيال الطائفة المنصورة، وأنها تقاتل الدجال، وأنهم منتصرين

---

[23]- ابن تومرت، محمد: أعز ما يطلب، تح: عمار طالبي، وزارة الثقافة، الجزائر، د.ط، 2007م، ص294-295.

[24]- ابن تومرت: المصدر السابق، ص229.

[25]- الصلابي، علي محمد: دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، 1998م، ص448.

[26]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص173.

[27]- مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1979،1م، ص107.

[28]- المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص140-141. ومجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص107-108.

حتى قيام الساعة[29]، وقد تمكن ابن تومرت من استغلال هذا المبدأ لتنفيذ غرض سياسي، والمتمثل بترسيخ العقيدة الموحدية في المجتمع المغربي، فالتوحيد حسب الفكر التومرتي يعني الدخول في طاعتهم، ولو كان في دينه شك، فهم قرنوا الطاعة لهم بالتوحيد لله[30].

ومن هنا فقد عزز ابن تومرت مكانته بين اتباعه ومناصريه، من خلال إقناعهم بأنه المهدي المنتظر، والإمام المعصوم، فكان يحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، وبذلك نجح ابن تومرت في جعل أصحابه رهن إشارته، ووصل بهم الأمر إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه وأخيه وابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء[31].

ثالثاً: عمليات التمييز وأثرها في ترسيخ عقيدة ابن تومرت:

جرت في عهد محمد بن تومرت عمليتي تمييز كبيرتين، ساهمت إلى حد كبير في تثبيت دعوة ابن تومرت وسلطته، وفيما يلي سيتم الحديث عن تلك العمليات، ونتائجها على الدولة الموحدية.

1- حملة التمييز الأولى 518هـ/1124م: بعد أن انتهى ابن تومرت من الدعوة إلى نفسه، ونجح في بناء جبهة ثورية صلبة، إلا أنه تعرض لعدد من المشكلات الداخلية، والتي كانت بمثابة دافع له للقيام بعملية التمييز، ومن أهم هذه الدوافع:

- تخوف ابن تومرت من انقلاب هزميرة تينمل عليه، إذ كان جواسيس ابن تومرت قد أبلغوه بأن ولاء هزميرة أو بعضها مشكوك فيه، فخافهم ابن تومرت لكثرتهم ومنعتهم، مما دفعه لإيجاد سبباً قوياً لتدبير مؤامرة للقضاء عليهم[32].

- الضغط الكبير من قبل الدولة المرابطية على ابن تومرت، إذ أصبح مطلوباً من قبلها، فحاولوا القبض عليه، وعندما فشلوا في الأمر، سعوا إلى قتله، وعندما فشلوا في ذلك، ضربوا حصاراً عسكرياً واقتصادياً على تنميل[33]، وشنوا حملة إعلامية ضده وضد اتباعه، مما دفع بعض اتباعه من إعادة التواصل مع المرابطين[34]، واجتمع أعيان أهل تنميل لإصلاح الحال مع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين(500-537هـ/1106-1142م)[35].

---

[29]- ابن تومرت: أعز ما يطلب، مصدر سابق، ص145 و248.

[30]- الغناي: قيام دولة الموحدين، مرجع سابق، ص204.

[31]- المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص191.

[32]- المغراوي، محمد: الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، ط1، 2006م، ص18.

[33]- حاصر الجيش المرابطي ابن تومرت في جبل تنميل، وضيقوا عليهم، ومنعوا عنهم الميرة، فقلّت عند أصحاب ابن تومرت الأقوات حتى صار الخبز معدوماً عندهم، وكان يطبخ لهم كل يوم من الحساء ما يكفيهم، فكان قوت كل واحدٍ منهم أن يغمس يده في الحساء ويخرجها، فما علق عليها قنع به ذلك اليوم. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ص657.

[34]- بنسباع، مصطفى: السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ط1، 1999م، ص55.

[35]- علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة الصنهاجي اللمتوني الحميري، ولد عام 477هـ/1083م، تولى الحكم بعد وفاة والده عام 500هـ/1106م، وعمره 23 عام، سعى لمواصلة سياسة أبيه يوسف بن تاشفين في الحكم، فحقق انتصارات عدة على أعدائه، لكن ضعف شخصيته، وخضوعه لرغبات الفقهاء ورجال الدين، وتدخل النساء في الحكم، جعل

- رفض قطاع واسع من القبائل، للمبادئ التي طرحها ابن تومرت، وعلى رأسها الفكرة المهدوية، حيث كان هؤلاء يشكون بشكل كبير بمهدوية ابن تومرت، ويرفضون زعامته الإيديولوجية والدينية[36].

وهذا ما جعل ابن تومرت يسعى لتثبيت ولاء اتباعه للحركة الموحدية[37]، وتنقية الصف الموحدي من المعارضين والرافضين لفكره، فعمد إلى ممارسة العنف الداخلي، فقام بعملية التمييز أو التطهير ضد أهل هزميرة[38] وتنميل، وذلك في عام 518هـ/ 1124م[39]، حيث ذكر المؤرخ ابن القطان[40] تفاصيل عملية التمييز تلك، فقال: "كان ابن تومرت يخرج كل يوم إلى الشريعة (هي القاعة المخصصة للدروس والمواعظ) من خارجها، فيجلس على حجر مربع أمام المحراب، فيعظ الناس وكانت قبيلة هزميرة يمسكون العدة[41]، فقال لهم: ما لكم تمسكون العدة، وأصحابنا إخوانكم الموحدون أعزهم الله تعالى لا يمسكونها؟ فأقاموا على ترك عدتهم زماناً، وقد كان الإمام خاف من جهتهم لكثرتهم ومنعتهم، وكوشف من حالهم بما اقتضى له تدقيق النظر في أمرهم، فوصلوا في بعض الأيام إلى الوعظ دون عدة، فما شعروا إلا وأصحابه الموحدون ومعهم العدة قد أحاطوا بهم، فقتل منهم في ذلك اليوم خمسة عشر ألف، وقتل من ذلك القبيل كل من حضر في ذلك اليوم إلى تينمل، وسبى حريمهم، وغنم أموالهم، فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين من أصحابه، وأصفى ديارها جوائز: لكل قبيلة جائزة، ثم أدار على المدينة سوراً أحاط بوهدتها، وبنى على رأس الجبل سوراً وأفرد في قبته حصناً يكشف ما وراء الجبل"[42].

كان الغدر الذي حصل بقبيلة هزميرة تنميل سنة 518هـ/ 1124م، قد جرى بعد ثلاث سنوات من بيعة ابن تومرت بالمهدوية، وهذا يعني أن الأمر لم يستتب لابن تومرت كما يريد، لذلك قام بهذا الإجراء الدموي، بهدف تصفية جزء من حركة المعارضة الداخلية القائمة، وذلك بغية منع انتشارها إلى باقي القبائل وقد بلغت ذروة تلك التصفيات مع قتل ابن

زمام السلطة تخرج من يده، فبدأت عدد من الثورات في المغرب والأندلس ضده، وساءت أحوال البلاد. انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص159. نصر الله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس(عهد يوسف بن تاشفين)، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1985م، ص35-41.

[36]- المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص145.

[37]- بنسباع: السلطة بين التسنن والتشيع، مرجع سابق، ص55.

[38]- إحدى القبائل المصمودية، التي تحوي على الكثير من البطون والقبائل المندمجة مع بعضها، وكانت تسكن في حوز مراكش. انظر: ابن منصور، عبد الوهاب: قبائل المغرب، المكتبة الملكية للطباعة، الرباط، د.ط، 1966، ج1، ص323-326.

[39]- المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص78.

[40]- ابن القطان: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن إبراهيم الكتامي يعرف بابن القطان، توفي سنة 628هـ/1230م، له العديد من المؤلفات أهمها: نظم الجمان في أخبار الزمان تكلم فيه عن بلدان المغرب، وكان أحد أجزائه ابتداء تاريخ حركة الموحدين. انظر: ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997م، ص105.

[41]- كان من عادة أبناء هزميرة خلال حضورهم لدروس الوعظ أن يمسكون أسلحتهم. انظر: المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص18.

[42]- ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص139-140. ومجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص112.

تومرت لكل من يشك في مصداقية مهدويته، أو جدارته بالزعامة حتى لو كان من أقرب المقربين منه[43]. أثار العنف الزائد من قبل ابن تومرت أحد أهل العشرة، وهو الفقيه الإفريقي (لم تذكر المصادر أي شيء عن اسمه سوى ذلك)، فأمر المهدي بقتله وصلبت جثته، وقد أنكر الموحدون احتجاج الإفريقي، كونه شك في عصمة الإمام ابن تومرت[44]. كان الفتك بأهل هزميرة درساً لتنبيه معارضي ابن تومرت بجديته وعدم تساهله مع أي تهديد للحركة، إلا أنه سرعان ما أقدم على خطوات عملية لتطويق مجازره الدموية، حيث عمل على المؤاخاة بين أصحابه، وبدأ يرسل الحملات العسكرية إلى ناحية السوس فيسبون ويقتلون ويغنمون، كانت هذه الخطوات كفيلة بإجهاض التساؤلات التي أثارها الفقيه الإفريقي، فضلاً عن تنفيس الاحتقان وإشغال الموحدين[45]. ومن هنا فقد رسخت هذه العملية من دعائم الحركة الموحدية عامةً، وسلطة ابن تومرت خاصةً.

2- حملة التمييز الثانية 519هـ/1125م:

أ- أسباب حملة التمييز الثانية: وبعد سنة واحدة من عملية التمييز الأولى، وفي عام 519هـ/1125م، قام ابن تومرت بعملية تمييز ثانية، كانت أضخم وأكثر عنفاً من حملة التمييز الأولى، وترجع أسباب عملية التمييز إلى مجموعة من الأسباب والعوامل، منها:

- تزاحم مدينة تينمل والمناطق المجاورة بأخلاط متنوعة من الناس التي لا يطمئن لها، حيث كان لأخبار انتصاراته ومهديته وكراماته، وما كان رجاله يغنمونه من معاركهم دوراً في جذب هؤلاء، فخشي على نفسه منهم.

- عدم فقدان ابن تومرت لشعور انتمائه إلى قبيلة صغيرة لا تستطيع حمايته إذا تهدده خطر خارجي، يؤثر على حياته.

- رغبة ابن تومرت في التخلص ممن لا يطمئن إليه من هؤلاء الناس، الذين جمعتهم تينمل من قبائل شتى بعضهم يعرفهم وبعضهم لا يعرفهم[46].

ب- العلاقة بين ابن تومرت والونشريسي[47]: قبل الحديث عن دور الونشريسي في أحداث عملية التمييز لابد من التعريف به، والحديث عن علاقته بابن تومرت، فالونشريسي هو عبد الله بن محسن بن يكنيمان بن الحسن بن الحسين بن عبد الملك بن كبّاب بن ريس، المكنى بالبشير، من أهل جبال الونشريس في المغرب الأوسط، لقي ابن تومرت أثناء مروره في دياره عندما كان راجعاً من رحلته المشرقية، فأعجب به وتتلمذ على يديه، وأصبح من خواصه، وعندما بدأ

---

[43]- المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص18-19.

[44]- ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص142.

[45]- المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص18-19.

[46]- الزركشي: وثائق المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص90.

[47]- الونشريسي: بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة ، هذه النسبة إلى ونشريس، وهي بليدة بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينة المغرب، وهي ضمن جبل عالي. انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1977م، مج5، ص54.

ابن تومرت بتنظيم حركته كان من أهل العشرة الذين بايعوه[48]،وكان الونشريسي ممن تهذب وقرأ فقها، وكان فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب، فتحدثا يوماً في كيفية الوصول إلى الأمر المطلوب، فقال ابن تومرت للونشريسي: أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه، فنصدق فيما نقوله، ففعل عبد الله ذلك ثم إن محمداً استدنى أشخاصاً من أهل الغرب أجلاداً في القوى الجسمانية أغماراً، وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار، فاجتمع له منهم، سبعة سوى عبد الله الونشريسي، ثم إنهم رحلوا إلى المغرب الأقصى، وتوجهوا جميعاً إلى مراكش وملكها يومئذ علي بن يوسف بن تاشفين[49]، وبعد مناظرات عدة بين فقهاء المرابطين وابن تومرت وصحبه، فرّ ابن تومرت نحو جبل تنميل واستقر به برفقتهم، وكان معه إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريسي، يُظهر البله، وعدم المعرفة بشيء من القرآن والعلم، ويُزاقه يجري على صدره، وهو كأنه معتوه، ومع هذا فالمهدي يقربه ويُكرمه، ويقول: إنّ لله سِرّاً في هذا الرجل سوف يظهر[50]. وبعد انتهاء عملية التمييز، كلفه ابن تومرت بالكثير من المهام أثناء حروبه مع المرابطين، فقاد عدد من الحملات ضدهم، إلا أنه قتل في معركة البحيرة عام524هـ/1130م التي وقعت على أبواب مدينة مراكش[51].

ج- أحداث عملية التمييز الثانية: قام ابن تومرت بمساعدة صديقه عبد الله بن محسن الونشريسي، بهذه العملية، حيث أمر ابن تومرت الونشريسي بالعودة إلى حياته الطبيعية، وقال له: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بك قلوب من لا يدخل في الطاعة[52]، ويذكر المؤرخ ابن الأثير (555-630هـ/1160-1232م)[53] عن هذه الحادثة فيقول: "كان الونشريسي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرّ بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلمّا كان سنة تسع عشرة وخمسمائة، وخاف المهدي من أهل الجبل، خرج يوماً الصلاة الصبح فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريسي! فقال له المهدي: إن أمرك لعجب ! ثم صلى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروه وحققوا أمره فلما أضاء النهار، عرفوه، فقال له المهدي: ما قضيتك؟ قال: إنني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني الله القرآن، والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث فبكى المهدي بحضرة الناس، ثم قال له نحن

---

[48]- البيذق، أبو بكر الصنهاجي (560هـ/1164م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، د.ط، 1971م، ص19.

[49]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ص48-49.

[50]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص658-659.

[51]- البيذق: المقتبس، مصدر سابق، ص23.

[52]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، مج5، ص52.

[53]- علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ولد في جزيرة ابن عمر، ونشأ في بيت مال وجاه وكان له تجارة بين الشام والموصل، ارتحل بين الموصل وبغداد ودمشق وحلب، ثم عاد إلى الموصل حيث وهب العلم لمن يريد، ومن أشهر مؤلفاته: الكامل في التاريخ واللباب في تهذيب الأنساب وأسد الغابة في معرفة الصحابة، وتاريخ الدولة الأتابكية. انظر: عكاوي، رحاب خضر، موسوعة عباقرة الإسلام (في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة)، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993م، ج2، ص172-174.

نمتحنك؛ فقال: افعل. وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سُئل وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك، واستعظموه. ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنّة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي. فسار المهدي، والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصلّى المهدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله! إن أبا عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت، فقال من بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلما قال ذلك من البئر، قال المهدي: إنّ هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تطم لئلا يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز؛ فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها، ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان"[54].

وبعد ذلك ألقى ابن تومرت خطاباً قال فيه أن الملائكة نزلت على الونشريسي، وغسلت قلبه وملأته علماً وحكمةً، وكان ذلك عندما خرج ابن تومرت إلى الناس، فقال لهم: تعلمون هذا الشيخ البشير...، تعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وتعرفون أنه لا يثبت على آية، وقد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم، وهو من آية الله تعالى في هذا الأمر! فأول كراماته أنه حفظه الله القرآن، وعلمه الركوب، ثم استعرضه أمامهم، فعرضه عليهم في أربعة أيام، في كل يوم ربع، وأجرى أمامهم حصاناً أنتن ركوبه غاية الاتقان، فاستغربوا أمره وأعجبهم وصدقوا ذلك تصديقاً قوياً[55]، وأنه هو من سيقوم بعملية التمييز تلك، وقد اتخذ خلال خطابه منحى ديني في تعاطيه مع عملية التمييز، فاعتمد على القرآن الكريم في أقواله، وهي، قوله تعالى: "ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون"[56]. وقوله: "كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو أمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون". حتى قوله: "ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه، حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فأمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم"[57]. وبعد الانتهاء من تلك الآيات ختم ابن تومرت كلامه بقوله: "وقد صحبنا أقواماً أطلعه الله على ما في نفوسهم من الانفاق ولا بد النظر في أمورهم، حتى يتم المراد من العدل"[58]. ثم قال ابن تومرت للونشريسي: "فعجل لنا البشرى في أنفسنا وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟ فقال له: أما أنت فانك المهدي القائم بأمر الله، ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك؛ ثم قال: اعرض أصحابك علي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار"[59].

---

[54]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص658.

[55]– ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص146.

[56]– القرآن الكريم: سورة الأنفال، الآيات 35–37، ص181.

[57]– القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآيات 110–179، ص64–73.

[58]– الزركشي: وثائق المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص91–92.

[59]– ابن خلكان: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، مج5، ص53.

بدأت القبائل بالمرور أمام الونشريسي فيجعل قوماً منها على يمينه وقوماً على يساره[60]، ويقول: هذا من أهل النار، فيُلقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغر ومن لا يخشى فيقول: هذا من أهل الجنّة، فيُترك على يمينه، فلما تم الأمر تبين أن أصحاب اليمين هم أصحاب الجنة، وأن أصحاب اليسار هم أهل النار، وأن مصيرهم هو القتل العاجل، ثم أمر أهل اليمين من كل قبيلة أن يقتلوا قرابتهم من أهل اليسار، وهكذا جعل الناس يقتلون بعضهم بعضاً، لكي يطمئن باله[61]، دامت عملية التمييز أو التطهير أربعين يوماً[62]، ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين امنوا إيماناً[63]، ونجح ابن تومرت خلالها في تفريق أبناء القبيلة الواحدة، فبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً خلال أيام[64]، ويقال أن ابن تومرت أباد خمسة قبائل في هذا التمييز[65]، وبعد الانتهاء من تلك العملية، بدأت عملية التمييز العسكري، استعداداً للغزو والحروب[66].

3- نتائج عمليات التمييز: أدت عمليات التمييز الت قام بها محمد بن تومرت بحق القبائل والقوى المؤيدة له إلى مجموعة من النتائج، ومنها:

- بدأ ابن تومرت يجهز جيشه لمواجهة قوات المرابطين، وكان يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: "انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ما جاؤوا به من خيل وعدة، وإنما هو هدية من الله تعالى لكم، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم"، وخلال الفترة الواقعة بين عامي(519-524هـ/1123-1130م)، أرسل ابن تومرت عدد من الحملات العسكرية لمحاربة المرابطين، وحقق عليهم الانتصار في معارك عدة، مما كان له أكبر الأثر على انتشار عقيدة ابن تومرت أرسل أمير المرابطين علي بن يوسف الجيوش للقاء ابن تومرت، فكان أول جيش بزعامة أبو بكر اللمتوني، الذي لم يقدر على لقائه لكثرة من تبعه، فبعث له بعسكر أخر بقيادة أخاه أبا اسحاق إبراهيم، الذي انهزم أمامه دون قتال، ولم يقف ابن تاشفين على ذلك فاستمر بإرسال الجيوش لقتال ابن تومرت دون جدوى، ويذكر صاحب كتاب الحلل الموشية عن تلك الحروب التي أرسلها ابن تاشفين، فيقول: "... فدامت أكثر مدته في حروب معهم

---

[60]- إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنكم لا يصح لكم دين ولا يقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم فابحثوا عن كلّ من عندكم من أهل الشر والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهوا وإلا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها إلي لأنظر في أمرهم. ففعلوا ذلك، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة، ثم الأسماء المكتوبة أخذ منها ما تكرّر من الأسماء فأثبتها عنده، ثم جمع الناس قاطبة ورفع الأسماء التي كتبها، ودفعها إلى الونشريسي، وأمره أن يعرض القبائل، ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال ومَن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص659.

[61]- الزركشي: وثائق المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص91-92.

[62]- البيذق: المقتبس، مصدر سابق، 23-24.

[63]- لوتورنو: حركة الموحدين، مرجع سابق، ص46.

[64]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص658.

[65]- البيذق: أخبار المهدي، مصدر سابق، ص39.

[66]- المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مرجع سابق، ص78.

وكروب، ومهما وجه عسكراً عاد مفلولاً، ودخل قلوب أجناده الذعر، وخامرهم الفزع والرعب"، ويذكر أن جيش الموحدين حقق حوالي أربعين انتصاراً على المرابطين[67].

– إقامة نظام اجتماعي جديد فوق النظام القديم، إذ نجح ابن تومرت من إرغام الكثير من القبائل من الانضمام إلى الحركة الموحدية، ونجح في استمالة مناوئيه إلى حد كبير[68].

– تعزيز مكانة ابن تومرت بين اتباعه ومناصريه، من خلال إقناعهم بأنه المهدي المنتظر، والإمام المعصوم، وعظُمت ثقة ابن تومرت بنفسه وقوته، فدخل الكثير من الناس في عقيدته، وكانت القبائل تتوافد عليه وتبايعه، بعدما شاعت الأخبار عن زهده وتقشفه، كما زادت محبة الناس له بعد أن ألغى الضرائب، ووزع الخيرات عليهم[69].

– اقناع اتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة، التي تجاهد في سبيل الله فشحن بذلك الهمم، وأقنع العقول، إذ قال في خطاب له أمام أنصاره: "إن الله وله الحمد قد منّ عليكم أيتها الطائفة المنصورة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده...، قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزَيّنَ لكم الشيطان أضاليل، فهداكم الله بعد الضلالة...، كونوا يداً واحدة على عدوّكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل، وعَمَّكم الصغار، واحتقرتكم العامة، فتخطّتكم الخاصة"[70].

وبذلك فقد حققت حملات التمييز جزءاً كبيراً من أهدافها، ومن أهمها أنها رسخت فكرة الحركة الموحدية في نفوس العامة، سواء عن قناعة أو عن خوف من مصير مجهول.

الخاتمة:

ومن هنا فإنه بعد الانتهاء من بحث حملات التمييز العرقي في عهد محمد بن تومرت ودورها في ترسيخ حركة الموحدين في المجتمع المغربي (518–519/1124–1125م)، فإنه يمكن التوصل إلى النتائج التالية:

– نجح محمد بن تومرت في تأسيس حركة دينية سياسية قوية ومتينة الأركان، حيث شملت عدد من الطبقات، ولكل منها عدد من الأشخاص، ولكل شخص منزلته الثابتة، التي لا يمكنه أن يتخطاها أو يتجاوزها، فتحت الباب واسعاً أمام تأسيس دولة مترامية الأطراف امتدت على كامل المغرب العربي والأندلس.

– نجح ابن تومرت في التسويق لعدد من المبادئ والآراء، والتي لقيت القبول والاستجابة في الكثير من القبائل.

– قوبلت آراء ابن تومرت بالرفض وعدم التصديق من قبل الكثير من القبائل والشخصيات، وهذا ما أثار مخاوف ابن تومرت من تراجع شعبية حركته واندثارها، وخاصةً مع الضغط الكبير التي تعرضت له من قبل الدولة المرابطية.

---

[67]– مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص111– 112. والفيلالي، عبد الكريم: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، شركة تاس للطباعة، القاهرة، ط1، 2006م، ص402–403.

[68]– لوتورنو: الحركة الموحدية، مرجع سابق، ص45.

[69]– ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، مصدر سابق، ص454.

[70]– المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص195– 196.

– قام ابن تومرت بحركة تمييز واسعة أدت إلى مقتل الكثير من أبناء القبائل، وإبادة قبائل أخرى بالكامل، وقد أدت هذه العمليات إلى ترسيخ دور حركة الموحدين في المجتمع المغربي، ونجاحها بتأسيس دولة موحدية مترامية الأطراف.

ومن هنا فقد نجح ابن تومرت بعد الانتهاء من عمليات التمييز، في ترسيخ مبادئ الحركة الموحدية، وساهم مساهمة فعالة في تثبيت جذورها في المجتمع المغربي، ووضع الأسس الأولى لقيام الدولة الموحدية، التي استمرت في حكم المغرب لفترة طويلة من الزمن.

Sources and references

First: Arabic sources:

1- The Holy Qur'an
2- Ibn Abi Zara', Ali Al-Fassi: Al-Anis Al-Mutrib, Rawd Al-Qurtas (On the News of the Kings of Morocco and the History of the City of Fez), Dar Al-Mansour for Printing and Papers, Rabat, 1971 AD.
3- Ibn al-Atheer, Ali bin Muhammad bin Abdul Wahid al-Shaybani: Al-Kamil fi al-Tarikh, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, ed., 2012 AD, vol. 8 (from the year 432 AH to the year 520 AH).
4- Al-Baydhaq, Abu Bakr Al-Sanhaji (560 AH/1164 AD): News of Al-Mahdi ibn Tumart and the beginning of the Almohad state, Dar Al-Mansour for Printing and Papers, Rabat, D., 1971 AD.
5- Al-Baythaq, Abu Bakr Al-Sanhaji: Excerpted from the Book of Genealogy fi Ma'rifat Al-Ashab, ed.: Abd al-Wahhab bin Mansour, Dar al-Mansour for Printing and Papers, Rabat, ed., 1971 AD.
6- Ibn Tumart, Muhammad: The dearest is what is sought, ed.: Ammar Talebi, Ministry of Culture, Algeria, ed., 2007 AD.
7- Al-Hamawi, Yaqut bin Abdullah (d. 626 AH / 1228 AD): Dictionary of Countries, edited by: Farid Abdul Aziz Al-Jundi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, d.d., d.d.
8- Al-Himyari, Muhammad Abd al-Moneim (d. 900 AH/1495 AD): Al-Rawd al-Mu'ttar fi Khabar al-Aqtar, ed.: Ihsan Abbas, Library of Lebanon, Beirut, 2nd edition, 1984 AD.
9- Ibn Khaldun, Abd al-Rahman bin Muhammad (d. 808 AH/1406 AD): Lessons and Diwan al-Mubtada wa al-Khabar in the days of the Arabs, Persians, Berbers, and those who contemporaneously had great authority, Dar al-Fikr, Beirut, ed., 2000 AD.
10- Ibn Khallikan, Ahmed bin Muhammad bin Abi Bakr: Deaths of Notables and News of the Sons of the Time, ed.: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, ed., 1977 AD.
11- Al-Zarkashi, Abu Abdullah Muhammad bin Ibrahim: The History of the Almohad and Hafsid States, ed.: Muhammad Madour, Al-Maktabah Al-Atiqa, Tunisia, 2nd edition, 1966 AD.
12- Abd al-Malik, Ibn Sahib al-Salaat (d. 594 AH/1198 AD): The Manna of Imamate in the History of Morocco and Andalusia during the Almohad Era, ed.: Abd al-Hadi al-Tazi, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 3rd edition, 1987 AD.
13- Ibn al-Qattan, Ali bin Muhammad bin Abd al-Malik (d. 628 AH/1230 AD): Nazm al-Juman to arrange the previous reports of time, ed.: Mahmoud Ali Makki, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, ed., 1990 AD.
14- Anonymous: Al-Jalal al-Mushiya fi Zhikr al-Akhbar al-Marrakesh, ed.: Suhail Zakkar and Abdel Qader Zamama, published and distributed by Dar al-Rashad al-Hadithah, Casablanca, 1st edition, 1979 AD.
15- Al-Marrakshi, Abd al-Wahid (d. 647 AH/1250 AD): Documents of the Almoravids and Almohads, edited by: Hussein Mu'nis, Library of Religious Culture, Port Said, 1st edition, 1997 AD.

16- Al-Marrakshi, Abd al-Wahid (d. 647 AH/1250 AD): Al-Mu'jab fi Summary of the News of the Maghreb (from the time of the conquest of Andalusia to the end of the Almohad era), ed.: Muhammad Sa'id al-Arian and Muhammad al-Arabi al-Alami, Al-Istiqama Press, Cairo, 1st edition, 1949 AD.

Second: Arabic references:

1- Bensbaa, Mustafa: Authority between Sunnism, Shiism, and Sufism between the Almoravid and Almohad eras, Abdelmalek Saadi University, Tetouan, 1st edition, 1999 AD.
2- Harakat, Ibrahim: Morocco throughout history, Dar Al-Rashad Al-Haditha, Casablanca, 1st edition, 2000 AD.
3- Hassan, Ali Hassan: Islamic civilization in Morocco and Andalusia in the era of the Almoravids and Almohads, Al-Khanji Library, Egypt, 1st edition, 1980 AD.
4- Dandash, Ismat Abdul Latif: Andalusia at the end of the Almoravid era and the beginning of the Almohad era of the Second Tawaif (510-546 AH / 1116-1151 AD), Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut, 1st edition, 1988 AD.
5- Ibn Sawda, Abd al-Salam ibn Abd al-Qadir: A Guide to the Historian of Al-Aqsa Maghreb, Dar Al-Fikr for Printing and Publishing, Beirut, 1st edition, 1997 AD.
6- Shabana, Muhammad Kamal: Islamic states in Morocco, Dar Al-Alam Al-Arabi, Cairo, 1st edition, 2008 AD.
7- Al-Salabi, Ali Muhammad Muhammad: The Almohad State, Al-Bayariq Publishing House, Amman, 1998 AD.
8- Al-Azzawi, Abdul Rahman Hussein: The Arab Maghreb in the Islamic Era, Dar Al-Khaleej for Printing and Publishing, Amman, 1st edition, 2011 AD.
9- Akkawi, Rihab Khader, Encyclopedia of the Geniuses of Islam (in medicine, geography, history, and philosophy), Dar Al-Fikr Al-Arabi, Beirut, 1st edition, 1993 AD.
10- Al-Ghanai, References of Aqila: The Establishment of the Almohad State, Qar Younis Publications, Benghazi, 2nd edition, 2008 AD.
11- Farahita, Sabira: The Berber tribes from the death of the priestess until the end of the Rustamid state in the Central Maghreb, Mohamed Bou Diaf University, Algeria, 2016 AD.
12- Al-Fadl, Muhammad Ahmad: Eastern Andalusia in the Islamic Era, Dar Al-Ma'rifa, Cairo, Dr. I, 1996 AD.
13- Al-Filali, Abdel Karim: The Political History of the Greater Arab Maghreb, Tass Printing Company, Cairo, 1st edition, 2006 AD.
14- Al-Kayyali, Abdel-Wahhab: Encyclopedia of Politics, Arab Foundation for Studies, Beirut, D. I., D. T.
15- Al-Maghrawi, Muhammad: The Almohads and the Crises of Society, Roots Publishing House for Printing and Publishing, Rabat, 1st edition, 2006 AD.
16- Ibn Mansour, Abd al-Wahhab: The Tribes of Morocco, Royal Printing Library, Rabat, ed., 1966 AD.
17- Mu'nis, Hussein: Landmarks of the History of Morocco and Andalusia, Dar Al-Rashad Printing, Cairo, 5th edition, 2000 AD.
18- Al-Najjar, Abdul Majeed: Al-Mahdi Ibn Tumart (his life, his views, his intellectual and social revolution, and his influence in Morocco), Dar Al-Gharb Al-Islami, Cairo, 1st edition, 1983 AD.
19- Nasrallah, Saadoun Abbas: The Almoravid State in Morocco and Andalusia (the era of Yusuf ibn Tashfin), Dar Al-Nahda Al-Arabiyya, Beirut, 1st edition, 1985 AD.

Third: Translated references:

1- LeTourneau, Roger: The Almohad Movement in Morocco in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Trans.: Amin Al-Tibi, Arab House of Books, Tripoli, ed., 1982 AD.